Representations of the ego and the other In the novel Sharq al-Mutawassit (= East of the Mediterranean) by Abdul Rahman Munif.

Assistant lecturer. Dr. Najwa Mohammed Juma
The University of Basrah
College of Education for the Humanities
E-mail: albaytinajwa@gmail.com

Abstract:

Arabian novel has been recognized , since the 19th century with its incarnation of ,the ego , and , the other , expressing two opposite selves , showing various forms and perspectives .This dichotomy was found among the human cultures before its appearance in fictional works . On this basis, the choice of novel in the above – mentioned title was on purpose since it sheds light on the political struggle between authority and the individua and their relation to , the other, differently .

Studying such dichotomy necessitates the division of the research into two basic parts,preceded by a preliminary part explaining concepts such as representation , ego, and otherness and the relation between the last two ones in a complementarily way that cannot be split . The presence of the ego necessitates the existence of the other . The first section is specified to the study of ego representations (oppressed ego and defeated ego). Section two is devoted to the representations of , the other , which is further divided into two parts . The first one is concerned with the representation of the other and its relation with the ego experiencing two aspects : , internal other, and external other , which are further sub – divided . The second part examines the place as being " the other" also in relation to the presence of the ego successively : prison, ship , and west . The research then presents some important conclusions followed by a list of resources.

Keywords : Representations , ego, the other Eastern Mediterranean , Abdul Rahman Munif

تمثلات الأنا والآخر في رواية شرق المتوسط لعبد الرحمن منيف

أ.م.د. نجوى محمد جمعة
جامعة البصرة / كلية التربية للعلوم الإنسانية
E-mail: albaytinajwa@gmail.com

الملخص :

امتازت الرواية العربية منذ ظهورها في القرن التاسع عشر بتجسد ثنائية الأنا والآخر التي عبرت عن وجود ذاتين مغايرتين، اتخذت أشكالاً عدّة مبثوثة في ثناياها، وقد وجدت تلك الثنائية في الثقافات الإنسانية قبل وجودها في النصوص الروائية. وانطلاقا من تلك الأهمية تبلورت فكرة اختيار العنوان المدروس بقصدية واضحة في رواية شرق المتوسط؛ لأنّها سلطت الضوء على الصراع السياسي بين السلطة والفرد ، وعلاقتهما بالآخر بصوره المختلفة .

لقد وجدنا أنّ دراسة تلك الثنائية تستوجب تقسيم هذا البحث على قسمين أساسيين سُبِقا بمهاد نظري بيّن المفاهيم الآتية:(التمثيل،الأنا، الآخر) وعلاقة الأخيرين ببعضهما بعلاقة تكاملية لايمكن أن تنفصل، فوجود الأنا يقتضي وجود الآخر. بعد ذلك خصص القسم الأول لدراسة تمثلات الأنا بصورتين:(الأنا المضطهد، والأنا المهزوم). ثم درس القسم الثاني تمثلات الآخر الذي انقسم على قسمين: اهتم القسم الأول بدراسة تمثلات الآخر حسب علاقته بالأنا، وقد تمثل بصورتين:(الآخر الخارجي، والآخر الداخلي) ، وبدورهما – أيضا– انقسما على أقسام فرعية أخرى، فيما تناول القسم الثاني دراسة المكان بوصفه (آخر) حسب تواجد الأنا فيه بالتتابع:(السجن، والسفينة ، والغرب) وفي النهاية ختم البحث بأهم النتائج التي أُتبعت بقائمة المصادر والمراجع .

الكلمات المفتاحية : تمثلات ، الأنا ، الآخر ، شرق المتوسط ، عبد الرحمن منيف

مهاد نظري:

أولاً : مفهوم التمثل:

التمثّل لغة "من(المَثَلُ) و(المَثِيلُ): كالمِثل، والجمع أمثالٌ، وهما يتماثلان ... و(المَثَلُ) الحديث نفسه. وَقَولُهُ –عزَّوجلَّ– ولله المثل الأعلى، جاءَ في التفسيرِ :أنّه قول لاإله إلاّ الله، وتأويلُهُ أنَّ اللهَ أمَرَ بالتوحيدِ ونفى كُلَّ إلهٍ سِواهُ ،وهي الأمْثالُ. قالَ ابن سِيدهْ، وقد مَثَّلَ بهِ، وامْتَثَلَهُ، وتَمَثَّلَ بهِ وتَمَثَّلهُ...والمَثَلُ:الشيءُ الذي يُضرَبُ لشيءٍ مِثلاً فَيَجعَلُ مِثْلَهُ، وفي الصّحاح :ما يُضربُ به الأمثالُ. قال الجوهري: وَمَثَلُ الشيء أيضاً صفَتُهُ : قال ابنُ سِيدَهْ: وقوله–عَزَّ من قائلٍ –: مَثَلُ الجَنّةِ التي وُعِدَ المتقون، قالَ الليثُ : مَثَلُها هُوَ الخبرُ عنها ، وقال أبو اسحاق: معناه صِفةُ الجنة، وَوَرَدَّ ذلكَ أبو عليّ، قال: لأنَّ المَثَلَ الصِفةُ غيرُ معروفٍ في كلام العرب، إنما معناه التمثيلُ .." . [١]

وفي المعجم الوسيط " تَمَثَّلَ الشيءَ: تصور مثالهُ، ويقال: تَمَثَّلَ الشيءُ لهُ. وفي التنزيل العزيز :(فَأَرْسَلْنا إليها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لها بَشَراً سَوِياً) ....[٢]

أما اصطلاحاً :

فهو"ارتسام صورة أي صورة له حتى كأنهُ ينظر إليه، وامتثله صورهُ، ومثّلتُ له كذا تمثيلا، إذ صورته له بكتابة وغيرها ،ويمكن أنْ يكونَ التمثّل استحضاراً للأشخاص أو الأشياء إلى الذاكرة أو الذهن"[٣] .

ويقارب هذا المصطلح ويأخذ المعاني نفسها، مصطلح (التمثيل) وهو" مصطلح فلسفي ، يوحي ، يستعمل في علم المعلومات، ويراد به انَّ وظيفة اللغة تتمثّل بأنها تنوب عن الأشياء ، أي تُحيل على واقع غير لغوي، ومن هذا المنطلق عُدّتْ الكلمات علامات تمثّل أشياء العالم" ،[٤] ويشكل التمثيل " المتخيل الثقافي الذي يستخدم بوصفه شبكة واسعة من الصور والثيمات والمرويات والخطابات والقيم المتداخلة ، التي تُشكل بمجموعها الإطار المرجعي لهوية المجتمع الثقافية ". [٥]

إذن كلا المصطلحين " يحيلان بدورهما على صورة الشيء أو العلامات التي تدّلُ عليه ، لغوية كانت أو تجسيدية كما هو الحال في المسرح، مثلما يمنحان الناقد ، من خلال محمولاتهما المعرفية ، القدرة على وعي آليات الصورة وسبل إنتاجها ".[٦]

ولكن يبقى الفرق جوهرياً بينهما ، فمفهوم التمثيل هو صورة عن الأصل وليس الأصل ذاته، بمعنى آخر هو محاولة لرسم صورة معينة عن الشيء تُشابه الصورة الأصلية ، أمّا التمثل فيتم به إنتاج صورة

تُعبر عن مخيال المنتج لذاته ولغيره، مُستلة عن وعيه الجمعي ومُضافاً إليها وعيه الشخصي بشأن الموضوع المراد تمثّله، وماتفرضه عليه معطيات الواقع وقيوده .[٧]

وعلى الرغم من الإشارة إلى تقارب هذين المصطلحين، الفرق واضح بينهما ، لذلك سيتبنى هذا البحث مصطلح التمثّل في الرواية المدروسة ، فهو الأقدرعلى إدراك وعي آليات الصورة وسبل إنتاجها .

ثانياً : الأنا والآخر بين المفهومين اللغوي والاصطلاحي :

الأنا لغة: برؤية النحويين هو " ضمير للمتكلم وحده، وللمتكلمة ،" لاتثنية له من لفظه إلا بنحن ، ويصلح نحن في التثنية والجمع ... قال الجوهري وأما قولهم :أنا فهو اسم مكني، وهو المتكلم وحده ، وإنّما يبنى على الفتح فرقاً بينه وبين أنْ الناصبة التي هي حرف ناصب للفعل والألف الأخيرة أنّما هي لبيان الحركة في الوقف". [٨] إذن فالدلالة اللغوية للأنا تعني التفرد والانفصال عن الآخر الذي يقابلها .

والآخر ورد في المعجم الوسيط" بمعنى أحد الشيئين، ويكونان من جنس واحد، والآخر بمعنى غير"[٩] و في لسان العرب " يقال هذا آخر وهذه أخرى في التذكير والتأنيث". [١٠]

من خلال عرض هذين المفهومين اللغويين يمكننا القول: إنَّ الأنا تعبر عن الذات ، وهي ضد الآخر الذي يخالفها ، ويتصادم معها .

أمّا اصطلاحا: فالأنا في المنظور الأدبي" تعبير عن الذات الواعية ، ذلك المكون من مكونات الشخصية الذي يسيطر بأكثر الطرق مباشرة وفورية على الفكر والسلوك ، فهو "الأنا " التي تشعر وتفكر وتميز الشخص عن ذوات الشخصية الأخرى" ،[١١] إذن الأنا " تساوي النفس المفكرة ، وترتبط بعملية التفكير لكونها تمثل مجموعة من العمليات التي تشتمل على الإدراك والتفكير والتذكر " .[١٢]

والآخر اصطلاحاً: في أبسط صوره هو مثيل أو نقيض(الذات) أو (الأنا)" ،[١٣] وهو" الكائن المختلف عن الذات وهو مفهوم نسبي ومتحرك، ذلك أنَّ الآخر لايتحدد إلاّ بالقياس على نقطة مركزية هي الذات، وهذه النقطة المركزية ليست ثابتة بصورة مطلقة، فقد يتحدد الآخر بالقياس إليّ كفرد ، أو إلى جماعة معينة قد تكون داخلية كالنساء بالقياس إلى الرجال، والفقراء بالقياس إلى الأغنياء، أو خارجية بالقياس الى مجتمع بصورة أعم". [١٤] . ويرى محمد الخباز أنَّ " لفظة الآخر ليست جديدة على المعجم العربي ، ولا على معاجم اللغات الآخرى ، بل هي قديمة قدم وعي الإنسان باختلافه عن غيره ، غير انَّ هذه اللفظة قد جرى عليها تغيير وتطور دلالي حولها من مجرد لفظة الى مصطلح في العلوم الإنسانية له دلالات خاصة ومحددة ، وذلك ماحدث لكثير من الألفاظ " .[١٥]

وبما أنّ مفهوم الآخر لم يستقر على تعريف محدد، يمكننا القول: إنّه يعني (الغير) المتميز عن(الأنا)، ولا وجود له دون وجود الأنا، فكلاهما يحدد وجود غيره ويحيل اليه ، ويتوقف معناه على المعنى المقابل له لأنّ" ساحة الحياة قوامها(الآخ)... كل مفردة تقابلها مفردة أخرى ، تقابلها على نحو الضد أو المغايرة، على نحو الاختلاف الكلي أو الجزئي،وهكذا الى مالانهاية ... الاختلاف إذن هو الذي يسود الحياة ...وهو الأصل ".[١٦] وهذا " الاختلاف لايتم اكتشافه إلا بواسطة الوعي فهو المحدد الرئيس الذي يساعد الذات في اكتشاف صورة الآخر" . [١٧]

وبعد أن أصبح عنواناً بارزاً في الدراسات النقدية المعاصرة، شاع في " دراسة الخطاب سواء الاستعماري (الكولونيالي) أو مابعد الاستعماري وكل مايستثمر أطروحاتها، مثل النقد النسوي والدراسات الثقافية والاستشراق". [١٨]وعلى الرغم من سيولة المصطلح وصعوبة بلورة معالمه بوضوح، فهو(تصنيف) استبعادي يقتضي إقصاء كل ماينتمي إلى نظام فرد أو جماعة أو مؤسسة ، سواء أكان النظام قيماً اجتماعية أم أخلاقية أم سياسية أم ثقافية ، ولهذا فهو مفهوم مهم في آليات الايديولوجيا .[١٩]

علاقة الأنا بالآخر :

بعد أن تطرقنا الى هذين المفهومين– الذي تحمله هذه الثنائية – لابد من الإشارة إلى العلاقة الوثيقة بينهما، فقد شكّلت ثنائيتهما آيقونة بارزة في الأعمال الروائية، وقد ارتبطا ببعضهما بعلاقة تكاملية " تحكمها أسس ثقافية وفكرية وفلسفية وسايكلوجية تنهض بصناعة طبيعة هذه العلاقة وكيفيتها " [٢٠] ، ويُعد حضور الأنا مُلازماً لحضور الآخر " ويبدو أنّ هذا التلازم على المستوى المفاهيمي ، تعبير عن الطبيعة الآلية التي يتم وفقها تشكّل كل منهما ، فصورتنا عن ذاتنا لاتكون بمعزل عن صورة الآخر لدينا . كما انَّ كل صورة للآخر تعكس– بمعنى ما – صورة الذات" . [٢١] ويتموضع " الأنا والآخر في مكان واحوفضاء عملي واحد، فلا يمكن الحكم على الآخر بأنه الآخر مالم يكن هناك صلة تربط الأثنين ببعضهما ، ويتحركان في فضاء مكاني وزماني واحد " . [٢٢]

وقد تمثّلت هذه العلاقة بوضوح في الخطاب القرآني – في مواضع عدّة – منها على سبيل المثال قصة خلق آدم عليه السلام ، واعتراض إبليس على ذلك بخلقه وتكوينه ، إذن هذه الثناية تشكلت منذ أنْ خلق الله الكون .

وفي سورة الكهف وردت أيضاً تلك العلاقة عندما تحاور صاحب البستان مع جاره الفقير فافتخر الغني على الفقير بقوله :" أنا أكثرُ منك مالاً وأعزُّ نفرا " الكهف/٣٤ فهناك ثنائية قائمة بين الأنا /الغني،

والآخر/ الفقير. ولاتزال تلك العلاقة واضحةً بين الأنا والآخر في هذه القصة عندما يستمر التحاور بين الكافر والمؤمن، وتستبدل أدوار الخطاب والحوار فيما بينهما ، وعلى الرغم من تبادل الأدوار إلا أنّ العلاقة التلازمية بينهما لاتزال واضحة للمتلقي .

وانطلاقاً من هذه العلاقة التلازمية بين هذه الثنائية، سيظهر البحث تمثلاتهما في النص المدروس (رواية شرق المتوسط) بعد أن يسلط الضوء على تمثلات الأنا، وكما يلي :

القسم الأول : تمثلات الأنا :

أولاً : تمثلات الأنا المضطهد :

عرضت الرواية المدروسة سيرة مصغرة للأنا السياسي/ البطل الذي أُعتقل وأُضطهد في سجون شرق المتوسط . فقد تعرض الأنا / رجب لأشد أنواع التعذيب الجسدي بسبب مشاركته في العمل السياسي عندما كان طالباً في الجامعة .

ولم تكتف الأنظمة القمعية باضطهاده أثناء وجوده في السجن، بل مارست اضطهاداً أكثر عندما لاحقته حتى بعد خروجه وسفره إلى الغرب في رحلته العلاجية، وقد بدأت أول حملة من حملات الاعتقال والاضطهاد ضده عندما ألقي القبض عليه " **في يوم أثنين، أول يوم بعد عيد الفطر . قبضوا عليّ ... كانوا يتراكضون ، لم ينظروا إليّ طويلاً ، قال نوري وهو يصرخ مثل ثور :**

- **هذا بعهدتك ، جديد، وأريدك أنْ تعتني به !** " .(٢٣)

أياً كانت أسباب اعتقال السجين، تسعى دائماً إدارات السجون إلى سلب الاعتراف من السجين الذي يقع تحت قبضتهم ، فأول أهداف تلك السلطة، هو الضغط على السجين حتى يعترف سواء أكانت تهمته حقيقية أم تلصق به إلصاقا .

وبعد الاعتقال تبدأ أول صورة من صور تعذيب الأنا واضطهاده :

أوقعني خرطوم الماء المندفع من أعلى ،وخلال فترة قصيرة كنت أعوم في بركة من المياه ... لم أنمْ ظللت طوال الليل أرتجف ، حاولت كثيراً ، فكرت كثيراً بطرق لاحصرَ لها أنْ أتخلص من الماء لكنْ ذهبت محاولتي وأفكاري دون جدوى " . (٢٤)

ثم يبدأ الضرب والشتم ثم الاستجواب " **دون أنْ نسألك ،إحكِ كل شيء ، يجب أن تعترف ، الأفضل أنْ تعترف ، لماذا تصمت مثل النعجة؟ هل أنت خائف ؟ ...إذا لم تعترف الآن فسوف أجعلك تعترف مثل كلب ، أتعرف كيف يعوي الكلب ، ستعوي أكثر منه** " .(٢٥)

في هذا النص يتجلى بوضوح التعنيف اللفظي، فضلا عن التعنيف الجسدي لمرات متعددة، فقد تعالت أنّات وصرخات الأنا السجين عندما واجه أشد أنواع التنكيل والاضطهاد ، وبعد انْ تعالت صرخاته المليئة بالألم ، لم يجد من يغيثه وينجده ، فقد تجرع التعذيب بكل صوره "

فمن ذلك قوله :

"**مددوني على طاولة كنت عارياً تماماً ، وجهي باتجاه الأرض ، ورأسي يترنح من الضربات ، لاأعرف أي عددٍ من السجائر أطفأوا في ظهري، على رقبتي وداخل أذني ... كانوا يضحكون أول الأمر وأنا أحاول الدفاع عن نفسي بساقي الطليقتين ، رفست مرتين أو ثلاث مرات ، ولما حاولت بالمرة الرابعة ، حزموا رجليّ بقوة ... بدأوا يصرخون اعترف .. اعترف . يابن الزنا** ". (٢٦)

يبدو واضحاً – هنا – تعسف الأجهزة الحاكمة والإرهاب الذي تمارسه ضد المسجونين ، فتعذيب الأنا في كل أنحاء جسمه ، ورفسه ، وحزم رجليه و... كل ذلك يسلط الضوء على الحدث الملغم داخل غرفة تعذيب الأنا .

ويتتابع سرد الأنا / رجب لصورة أخرى من صور تعذيبه وتعنيفه :

" **ضحكوا علي وأنا أتلوى ، بصقوا عليّ ، أحسست بماء ساخن فوق ظهري ، هل كانت دمائي تتفجر في مكان ما وتترنح بسخونتها ؟، هل كانت قطرات من البول ؟ هل كانت شيئاً آخر ؟** " (٢٧)

وتتلاحق صور التعذيب الأخرى عندما يصف الأنا لحظات التعذيب لجسده :

" **وضعوني في كيس كبير أدخلوه في رأسي ، وقبل أنْ يربطوه من أسفل أدخلوا قطتين ، هل يمكن للإنسان أن يتحول إلى عدو للحيوان ؟ والقطط ماذا تريد مني ؟ كانت يداي مربوطتين إلى الخلف ... وكلما ضربوا القطط بدأت تنهشني ، وحاولت أنْ أنقلب على جانبي ، أحسُّ برجلٍ ثقيلة فوق كتفي ، وعلى وجهي، وأحسُّ بالاظافر في كل ناحية من جسدي ، لما فكوا الكيس ...كنت دامي الوجه وأحسست بالنزف من عيني اليسرى** " . (٢٨)

وفي هذا النص يزداد الأمر سوءاً عندما يتعرض الأنا لجلسة تعذيب أخرى تختلف عن صورة الجلسات السابقة، فالسلطة الحاكمة – متمثلة بالسجانين – تتفنن بصور تعذيبها للمسجون المضطهد تحت يدها ، ففي كل مرّة نجد صورة أكثر بشاعة من التي قبلها ، فلم يكتفوا مسبقاً بخلع ملابس الأنا ، وكيّه بالسجائر على كل منطقة في جسمه، بل مارسوا نوعاً آخر من التعذيب ، كشف عن المستوى الإجرامي

المخزي لهذه السلطة ، فقد أُدخِلَ الأنا في كيس كبير مغلق، وأدخلوا قطتين معه ، وربطت يداه إلى الخلف حتى لايستطيع الدفاع عن نفسه ،عندما تبدأ القطتان بنهش وجهه وجسده .

ولم تكتف تلك السلطات المستبدة باعتقال الأنا واضطهاده في المرة الأولى ، بل تابعت ذلك عندما اعتقلته للمرة الثانية – بعد رجوعه من رحلته العلاجية في الغرب – وأجبرته على التوقيع في الورقة اللعينة التي منحته حريته ، وكان جواز سفره لغرض العلاج ، واختلقت الأسباب المقنعة التي تبرر اعتقالها ، وهذا ماحدث مع الأنا عندما " **رآهم يدخلون ، ظل جالسا وابتسامة شجاعة على وجهه ، قال لهم بتحدٍ :**

– لقد تأخرتم ، تأخرتم كثيراً !

– انتزع أحدهم الكتاب ، تطلّع إليه بقرف ثم رماه على الطاولة " [٢٩]

إذن هذه المرة الثانية التي يضطهد فيها الأنا عندما تعرض للاعتقال مجددا ، لكن المفارقة في هذه المرة أنّ الأنا كان على مستوى عالٍ من الشجاعة والاستعداد للاعتقال الثاني ، فلم يخشَ اعتقالهم في هذه المرة ، واستقبلهم بشجاعة وابتسامة على شفتيه ، ولم يتحرك من مكانه ، وكلمهم مستهزئا ومتحدياً لهم، بعكس اعتقاله الأول .

ثانيا : تمثلات الأنا المهزوم :

بعدما تعرض الأنا رجب للاضطهاد والتعذيب في السجون اضطر– نتيجة إصابته بمرض الروماتزم – إلى التعهد بترك نشاطه السياسي الذي كان يمارسه مسبقاً قبل اعتقاله ، ودخوله للسجن . وهذا التوقيع جعله يشعر بالحسرة والندم والهزيمة والانكسار، فقد هُزِمَ رجب البطل بعد أنْ كان صامداً " كنتُ صامداً ، **كنتُ أقوى من الجمل في صبره واحتماله ، لكن في لحظة خرساء سقطت** " . [٣٠]

ويتمثّل انهزامه أيضا بقوله : " حتى إذا وقعّتُ على تلك الورقة الصفراء ، شعرتُ أنّ كلّ شيء فيَّ ينهار ويسقط ، وسقطتُ ، ورافقتْ ضجة السقوط موجات الغبار التي حملتها أفواههم إلى كل مكان تبشّرُ الناس بنهاية رجب إسماعيل البائسة !" . [٣١]

إنّ هذا الانهزام جعل الأنا / رجب يعيش صراعاً نفسياً شطر شخصيته على قسمين : الشخصية البطلة التي صمدت ، وتحملت كل أصناف التعذيب ، والشخصية المهزومة التي ضعفت وانهارت لحظة توقيع التعهد، وهذا الانشطار النفسي بقي ملازماً له حتى عندما ابتعد عن تلك السجون وتوجه إلى الغرب " **لم يعد لي بعد أنْ وقعّتُ تلك الورقة المشؤومة أنْ أتكلم عن الحرية، عن باريس ، عن أي شيء . لو كنتُ رجلاً لظللتُ هناك وصمدتُ حتى النهاية** " . [٣٢]

ويتتابع السرد مفصحا عن تمثل هذا الشعور الداخلي للأنا :" **ماأخشاه أنْ أتحولَ إلى جيفة في الوطن، جيفة ينفر منها كل الناس، إذا رآني الصغار من بعيد قالوا : جاسوس ، إذا جلستُ في مقهى قال الكبار وهم يديرون لي ظهورهم : انظروا .. الرجل الأصفر الوجه الذي يجلس وراءنا ، خائن ، تصوروا الخيانة لونها أصفر، وتبدو على الوجوه بسرعة** " .(٣٣)

إذن هذا السقوط، وهذا الانهزام ، حوّل الأنا من إنسان إلى آخر ، من بطل إلى مهزوم، من صامد إلى منكسر، من مناضل إلى خائن .

ويظل شبح الانهزام والانكسار يلاحق الأنا في كل مكان وزمان، حتى في لحظة دخوله للمستشفى في الغرب، ظل متذكراً ذلك اليوم المشؤوم الذي وقّع فيه التعهد على نفسه: " **الآن ، وأنا انتظرُ ٢٢ كانون الأول، موعد دخولي للمستشفى، أصرخُ من أعماقي صرخات ملعونة يملؤها الوباء : ماالذي دفعني لأنْ أكتبُ تلك الكلمات المنحطة ! مالذي جعلني أقفُ أمامهم مثل طفل مذنب ، وأقولُ لهم ، لم تعد لي علاقة ،... الآن يتراءى لي كلّ مامرّ وكأنّه كابوس لايرحم، متى سقطت ؟ لماذا سيطرت عليّ تلك النقطة الضعيفة ...**" . (٣٤)

كابوس توقيع التعهد– في يوم الأربعاء١٧ أكتوبر/ تشرين الأول – لم يزل يلاحقه بين الحين والآخر، ولم يستطع نسيانه ، فلعنة نفسه تطارده ، وشعوره بالذنب لم يفارقه ، وتساؤلاته المتعددة لم تنته في ذهنه ، وتبريراته لنفسه كانت تلازمه، لعله يخفف عنه ألم انكساره وهزيمته وسقوطه ، وإن لم يسقط لولا المرض الذي أرغمه على ذلك " **أرجو أنْ تسمحوا لي بالموافقة على السفر للعلاج في الخارج بناء على توصية الطبيب، لأنّ مسؤولية موتي في السجن تقع عليكم ، وأتعهد أن أتوقف عن أي نشاط سياسي ... لم يبق أمامي إلا أنْ أتعهد وأسافر ، كان أمامي المرض ، ثم الموت ، هل أموت قبل أنْ أقول شيئا ؟ والتعهد ؟ لا لن أعمل في السياسة**" (٣٥) **لكن هذا التعهد قتله نفسياً قبل أن يموت جسدياً** " **دبيب الموت يمدّ لسانه في دمي ، يحول الدم إلى قيح ، ويعبر مسامي كلها ، حتى إذا وصل إلى رأسي . جعل كلّ ماأفكر فيه له رائحة القيح ولزوجته** " . (٣٦)

لقد جسد الأنا في هذا النص صورة وصفية للحظة انكساره وسقوطه، وهذه الصورة هي انعكاس حقيقة انهزامه النفسي ، الذي وصفه بالموت الذي سرى في دمه ، وحوله إلى قيح ، عبركل أنحاء جسمه.

القسم الثاني : تمثلات الآخر:

أولاً : تمثلات الآخر حسب علاقته بالأنا ، ويتضمن :

١- الآخر الخارجي الذي انقسم على قسمين :

- **الآخر الخارجي / المعادي .**
- **الآخر الخارجي / الصديق .**

٢- الآخر الداخلي

ثانياً : المكان بوصفه (آخر)

أولاً : تمثلات الآخر حسب علاقته بالأنا :

١- الآخر الخارجي

هو الذي يقع خارج سياقات انتماءات الأنا ، وقد يكون معادياً لها ، أو صديقاً حميماً . وبناء على ذلك سيدرس البحث ذلك ضمن صورتين :

- **الآخر الخارجي / المعادي**

تجسد بصورة القامع الذي أرهب الأنا / رجب وعذّبه طيلة فترة تواجده بالسجن، وقد تمثل بالشرطة والسجانين، والنصوص الدالة على ذلك كثيرة ، منها قول الأنا / رجب " **أمسك بي حاتم ، آمر الحرس ، مثل قط أجرب . أمسك بكتفي ... ضربني على وجهي بظهر يده ، وفي اللحظة التالية أحسست برِجْل تضربني على ظهري، وأهوي ، لم يدم ذلك طويلاً ، حصل بسرعة ... ما أن أفقت من الصدمة حتى بدأت أصرخ ... قال لي رجل لم أستطع أن أتبين وجهه ، لانّ الضوء وراءه كان يطغى ويعطيه ظلاً أسود .**

- اخرس ياابن الكلب ، إذا سمعت صوتك مرة أخرى ياابن ... ألعن أجداد أجدادك ..." (٣٧)

هذه صورة واحدة من صور الآخر الخارجي المعادي الذي تمثّل بوجود حاتم آمر الحرس الذي عذّب الأنا / رجب عندما أُدْخِل إلى السجن، ولم يكتف هذا المعادي بتعذيب الجسد الأنا ، بل استعمل أيضاً لغة (السب والشتم) في تعامله مع الأنا .

ويتكرر قمع الأنا وتعذيبه ، وتظهر صورة أخرى من صور التعذيب الذي يمارسه الآخر المعادي " **دقّ رأسي بالجدران مئات المرات ، كما تُدقّ المسامير في أخشاب السنديان ! ودق الرأس بالجدران عبارة عن بداية سمفونية العذاب: بعد ذلك ضربوني بالسياط . كنت عارياً لما ضربوني ، كانوا يتعبون من الضرب ، كانوا يتناوبون ، وكانوا أقوياء ، فإذا انتهى الضرب بدأت النيران تشتعل في جسدي . كانوا يطفئون السجائر في وجهي ، وفي صدري ، وفي أماكن أخرى . ليس هذا كل شيء ... علقت سبعة أيام في السقف . كانت يداي مربوطتين بحبل ، والحبل يجرّني على السقف ، فأقف على أطراف أصابعي عندما انتهت الأيام السبعة كانت ساقاي بحجم سيقان الفيل : متورمتين ، زرقاوين ، ثقيلتين .**" [٣٨]

عندما نتأمل هذا النص، نجد أنَّ صورة تعذيب الآخر للأنا لاتحمل أي تصرف إنساني وأخلاقي ، فهو يستخدم كل أشكال التعذيب – دق الراس بالجدران، والضرب بالسياط والجسد عارٍ، واشتعاله بالنار، وإطفاء السجائرفي الوجه والصدر، والتعليق بالحبل – من أجل سلب قوته ، وشلّ إرادته ، وسلب اعترافه حتى وإن لم يكن مجرماً حقيقياً .ويبدو أنّ هذا الآخر/ السجان – في كل مرة – يتفنن ويبتدع وسائل جديدة للتعذيب، فقد تحول إلى وحش، وفقد أدنى مقومات الإنسانية فاستخدم قوته الكبيرة من أجل تدمير الأنا .

- **الآخر الخارجي /الصديق**

شكّل حضوره صورة مشرقة في جسد النص المدروس، فعلى الرغم من هيمنة وجود الآخر الخارجي / المعادي الذي عذّب الأنا جسدياً ونفسياً طيلة فترة تواجده في زنزانة السجن إلا أنّ هذه الأحداث لم تخلُ من وجود الآخر / الصديق الذي تعددت صوره بالشكل الآتي :

- **الصديق / الجديد في الغرب .**
- **الصديق / الطبيب المعالج .**
- **الصديق / الجار المجهول .**
- **رفقاء السجن**

سيقف البحث عند هؤلاء الأصدقاء معززاً ذلك بالنصوص المدروسة :

- **الصديق الجديد** الذي تعرف عليه في الغرب ، هو عبد الغفور: " **في حفلة التزحلق على الجليد ... رأيت عبد الغفور لأول مرة ، ولاأدري كيف ساقتني قدماي في ذلك المساء إلى مسرح الطاحونة الحمراء ، فجأة وجدتُ نفسي وسط كتلة بشرية كبيرة ننتظر الساعة لكي تصبح السادسة . حصل كلّ شيء بالصدفة ، رآني ، سألني بلهجة باريسية وهو يضحك ، لأنّه أدرك منذ اللحظة الأولى**

أنّنا كلانا من الشاطيء الشرقي المتوسط ، إنْ كنتُ احتاج إلى تذكرة ، سألني وقال يحاول أن يوضح ويعتذر

– كنت أنتظر صديقاً من باريس ، لكنّه لم يأت ، والآن عندي بطاقة زائدة ، هل تحتاجها ؟

ودون تفكير وجدتُ يدي تمتد إلى جيبي وأدفع له ثمنها ، حصل الأمر فجأة ، وماكدت أدخل حتى رأيته... كان يجلس إلى جانبي من ناحية اليمين ... وخلال الدقائق الباقية على بداية الحفلة ، سألني إنْ كنت أجنبياً ، فلما هززتُ رأسي بالإيجاب ، قال :

– أترك لي فرصة لأن أحزر من أي مكان أنت ؟!

شعرتُ أنّه يريد كسر الجليد الذي بيننا بسرعة ، أجفلت ، حتى أنّ الندم شبك ذراعيه حولي ، وظننتُ أنّه مكلفٌ بمراقبتي ، وإلا كيف التقطني من الشارع ، وأوحى لي بشراء البطاقة ؟ والآن كيف يتعرف علي بهذه الطريقة التي تعطيه الحق في أنْ يتحدث ويمزح .

قلتُ والظنون تغزو رأسي

– أنا من هناك ، لاحاجة لأنْ تحزر .

قال

– منذ رأيتك ، قدرتُ أنّك من هناك ، لكن لم نلتق من قبل !

كانت هذه البداية ، ولاأعرف لماذا أصبحنا أصدقاء ، وكأننا نعرف بعضنا منذ سنوات ، تحدثنا عن مرسيليا وفرنسا عن الفنون " .(٣٩)*

كانت هذه بداية الصداقة بين الآخر الخارجي/ عبد الغفور، والأنا / رجب ، وقد تأكد رجب بأنّ هذا الآخر لم يحمل له أي عداء بدليل قوله : " **تأكدت في النهاية أنّه لايمكن أن تكون له أي علاقة بأولئك الذين قالوا لي قبل السفر: أذهب إلى أي مكانٍ تشاء لدينا من الوسائل مايجعلنا نعرف ماذا نفعل ، أحذر، لاتظن أننا بعيدون عنك** " .(٤٠)

يبدو أنّ معول السجان/ الآخر الخارجي المعادي لم يقتصر على تهشيم جسد الأنا / رجب، بل هشمه نفسياً ، فالخوف من مراقبتهم، كان يلاحقه بين الحين والآخر ، فكل من يراه يتصوره جاسوساً منهم يراقب كلّ تحركاته وتصرفاته .

وتتعمق تلك الصداقة عندما يحمل الآخر الخارجي رسالة من الأنا إلى أخته وزوجها وولدها، وسينتظر الرد منه " سافر عبد الغفور بعد فترة، وحمل معه رسالة لحامد، وضمنها رسالتان لأنيسة

وعادل".[٤١] " وإذا جاء عبد الغفور سيوضح لي كل شيء... لن تطول إقامة عبد الغفور . سيكون هنا الأربعاء ، وأبعد تقدير الجمعة " .[٤٢]

ولم تقتصر علاقة عبدالغفور برجب على ذلك فحسب، بل فكّر باستقرار حياته ، عندما قرر أنْ يجد له عملاً يكون بداية لحياته الجديدة " قبل هذه الرسالة فكرت بمجرد عودة عبد الغفور أنْ أبدأ حياة جديدة . حدّثته عن ذلك . قال وهو يضحك : إذا قرّرت فالأمر سهل، سأطلب من صديقتي إيفيلين حالما تعود من باريس، أن تبحث الأمر مع أبيها، وأعتقد أنّ أباها سيرحب بك في معمل الصابون الذي يملكه!".[٤٣]

• الصديق / الطبيب: الذي أشرف على علاج الأنا / رجب ، أثناء رحلته العلاجية إلى الغرب . التقى بالطبيب (فالي) الذي تابع حالته الصحية، وأراد قبل ذلك أن يتعرف على أبرز الأحداث التي مرّت به " كان الدكتور فالي وحده هذه المرة ، لمّا دخلت أغلق الباب بالمفتاح ، وقال وهو يبتسم :
شكراً لله أنّك جئت في الوقت المحدد ، نستطيع الآن أنْ نتحدث، أريد أنْ أسمع كلّ شيء عن الاعتقال والتعذيب ... بدأت أتحدّث ... لاأعرف يادكتور عن أي شيء أتحدث ، كيف أبدأ وكيف انتهي ، لقد كانت السنين الخمس الماضية كلّها، بأيامها ، بساعاتها ، بدقائقها ، وحتى بثوانيها ،عذاباً لا يحتمله إنسان ... بهذه الطريقة بدأت أتحدّث ، وفجأة تجمعت في رأسي آلاف الصور فانفجرت ... ووجدتُ نفسي أبكي. لم أبك في حياتي مثلما بكيتُ هذه المرّة " [٤٤]

كان هذا أول لقاء للآخر/ الطبيب بالأنا / رجب، ولم يبدأ بعلاجه إلا بعد أنْ استمع إلى كل الأحداث التي مرّ بها مريضه ، ويبدو أنّ رجب شعر بالراحة عندما حدثه " **الدكتور فالي، أي إنسان كان بالنسبة لي ؟ هل يستطيع أنْ يساعدني ؟ أنْ يفعل شيئاً من أجل أن يخلصني من العذاب الذي أحسه في داخلي مثل سيول مجنونة ؟ ... تركني الدكتور فالي أبكي لفترة طويلة ، لم يستنكر، لم يمدّ يده إلي، حتى إذا أحسست بالراحة ، قمتُ ووجهي إلى الأرض ، وقفت في زاوية ، أخرجت منديلاً ، ومسحتُ عيني ووجهي ... واستدرت نحو الدكتور فالي. حاول أنْ يبعد نظراته عني. هل كان يبكي في تلك اللحظة ؟ هل كان يخشى أنْ يضعف أو ينهار! رأيتُ شيئاً في عينيه .**" [٤٥]

لو تأملنا هذا النص لوجدنا نوعاً من الارتباط بين الآخر والأنا ، فلم يكن الطبيب المعالج مجرد طبيب يعالج مريضه ، ويصف له العلاج فحسب ، بل وجدناه مستمعاً وصاغياً لمعاناة مريضه النفسية ،

قبل أن يتعرف على آلامه الجسدية . وهذا الارتباط كان بداية لصداقة جديدة بين الاثنين . وبعد أن استمع اليه بدأ يواسيه ويثني عليه " **أقدّرُ الصعوبات التي واجهتها ، لكن أعتبرك رجلاً ، والرجال لايسقطون**"(٤٦).

وبعد أنْ كان الطبيب هو المتلقي والمصغي ، تحولت لغة المخاطبة بينهما ، وأصبح رجب هو المتلقي الذي استمع للطبيب الذي بدأ يحدّثه عن حياته ، وأهم الظروف التي مرّت به ، وكيف قُتِلت كل عائلته أثناء الحرب " **يجب أنْ تعرف أنّي الوحيد الذي بقيتُ من عائلتي. قتلوا اثنين من أخوتي ، قتلوا أمي ثم قتلوا زوجتي ، وكنتُ أسيراً وفررت** " (٤٧)

تبادل الحواريين الاثنين ، وإفصاح الطبيب عن معاناته والآمه ، يدلّ على وجود علاقة الصداقة بينهما. ثم تكررت اللقاءات ، بتكرار جلسات العلاج ، وهذا بدوره أدى إلى توطيد تلك العلاقة . والنصوص التالية تؤكد وجود تلك الصداقة ، وتكرار اللقاءات :

" **ضرب كتفي بصداقة وقال :**

– **الآن ..أستطيعُ أنْ أفحصك لأرى مدى تأ ثير العلاج** " (٤٨)

و " **في الأسبوع الأخير ، يجب أن أراك مرة أخرى، سوف نجري فحوصاً جديدة لنرى مدى التقدم** " .(٤٩)

• **الصديق/الجار المجهول** :الذي لم يره الأنا / رجب من قبل ، ولم يسمع عنه شيئاً ، لكنّ الرسالة التي وصلت إليه حملت هذا الاسم (**تحيات صديق لم تره من قبل**) .

إذن هذا الصديق هو الآخر الخارجي الذي خاطب الأنا بواسطة رسالة ورقية ، وصلت إليه من الشرق – من جار بيت أخته – وقد تضمنت مايلي :

" **السيد رجب إسماعيل .**

أرجو المعذرة لأنّي أكتبُ إليك دون معرفة سابقة ، ولكنّ الظروف تضطرني لذلك . لكنْ لاتظن أنّ في الأمر سوءاً أو مؤامرة ، أشعرك أنّي صديق لحامد، وأنا الذي حولت إليك النقود في الفترة الأخيرة ، حولتها إليك من خارج البلاد ، بعد أن تعذّر على حامد تحويلها . سيدي ، الأمر دون مقدمات ، إنّ حامد رهينة الآن ، أُوقف خلال الفترة الأخيرة ، وطُلِب منه بعد التوقيف مراجعة مركز الشرطة ثلاث مرات يومياً ، لكي يثبت وجوده. لقد حددوا له شهراً ، وطلبوا منه خلاله حضورك ، قال إنّه لن يكتب إليك مهما حصل ، ويبدو انّه حذّر أختك، لأنّها مرّت عليّ قبل بضعة أيام ، وكانت حائرة لاتعرف ماذا تفعل !

أضع أمامك هذه المعلومات ، تاركاً لك أنْ تتصرف، علماً بأنّ أحداً لم يطلب مني ، ولم أستشر أحداً فيما كتبت ، ولكنْ تقديري الخاص أنَّ وضع حامد يستدعي المراعاة ، خاصة وأنت تعرف أنَّ الأطفال دون أبيهم سيواجهون مصاعب حقيقية .

أخشى في حال معرفة حامد بما قمتُ به أنْ يلومني على ذلك كثيراً ، ولكنْ تقديري أنَّ وضعك قد سُوّي ، وليست هناك مخاطر حقيقية في حال وجودك هنا، أرجو أنْ تتخذ قراراً إيجابياً ، خاصة وإنَّ الفترة التي أُعطيت لحامد ، ستنتهي في نهاية الشهر الحالي !

مرة أخرى أرجو المعذرة ، وتقبل تحيات صديق لم تره من قبل ! " .(٥٠)

بداية هذا النص ونهايته تؤكد عدم معرفة الآخر/ الصديق بالأنا /رجب، – أكتب إليك دون معرفة سابقة ... تقبل تحيات صديق لم تره من قبل– فهو إذن صديق غير معروف مسبقاً، صديق مجهول الهوية . ويبدو أنّ هذا الآخر كنّى نفسه بالصديق ؛ بسبب حرصه وخوفه على صديقه حامد (زوج أنيسة أخت رجب)، وهذا الخوف دفعه لمراسلة الأنا/ رجب ، وهو في غربته ، لكي يتخذ قراراً إيجابياً بشأن حامد الذي أخذته الشرطة رهينة ، وحددت له سقفا زمنياً لحين عودة رجب من الغرب .

إنّ لغة الخطاب في هذا النص تدلّ دلالة واضحة على أنّ هذا الآخر لم يحمل موقفا عدائيا للأنا ، بل هو صديق له على الرغم من عدم وجود معرفة سابقة بينهما . ومايؤكد ذلك وجود ألفاظ الرجاء التي خوطب بها الأنا / رجب (**أرجو المعذرة ، أرجو أنْ تتخذ قرارا ، مرة أخرى أرجو المعذرة**) . فالمفردات اللغوية المستخدمة هنا ، هي عكس المفردات التي استخدمها الصديق / المعادي عندما خاطب الأنا أثناء وجوده في زنزانة السجن كما ذكرنا سابقاً .*.

•رفقاء السجن : الذين التقى بهم الأنا / رجب أثناء فترة تواجده في سجون شرق المتوسط ، وكانوا مقربين إلى نفسه، وأصبحوا أصدقاء جدد، عاش معهم خمس سنوات بكل مرارتها وقساوتها. وكان رفيقه (هادي) أكبرهم سنا، وأقربهم منزلة ، وبمنزلة القائد لهم. وقد كانت نهايته مأساوية ، فقد قتله الجلادون بعد التعذيب المستمر له، وهذا ماذكره رجب بقوله: " إنّ هادي جديلة من الصمود، غزلتها الأيام الصعبة والشقاء ورمتها في وسط الناس كتلة ملتهبة، لاتخبو ولاتتوقف ... ليس الذي أتحدثُ عنه الآن هو هادي المخلوق الحي الذي كان. ماأتحدثُ عنه قطعة معذبة، جسد يتلوى " . (٥١)

ولم تقتصر ذكريات الأنا لهذا الرفيق على أيام التعذيب والصمود فحسب ، بل كان يتذكر معالم وجهه، ويصفه قائلاً : " يجب أن يعرف الناس هادي: وجه أقرب إلى وجوه الأطفال ، عينان صغيرتان ، ذكيتان، وابتسامة لاتموت، كانت ابتسامة هادي مثل الضوء الصغير ، تغيب لحظة لكنها لاتنطفيء " .(٥٢)

أما الرفيق الآخر الذي شهد الأنا أيام تعذيبه وقتله في الزنزانة ، فهو **(أمين بائع الجرائد)** فقد " أتوا به، كنا نسمع نواحه ثم أنينه ، **ظلّ ثلاثة أيام في زنزانته لاتبعد عنا أكثر من خمسة أمتار ، ثم مات ! أمين لايعرف إلا سلاح الكلمة ، يقرأ أثرها في وجوه الرجال ، في لهفة أيديهم وهي تمتد على جرائده ، ومن أجل الكلمة قتلوه. كانت رائحة الزنزانة وهم يفتحونها ليخرجوا جثته مليئة بالقيء ورائحة الغواط ، ومن فتحة القضبان رأيناهم يحملونه: الزرقة والدم اليابس والكلمة التي انتهت إلى الأبد !** ". (٥٣)

في هذا النص يصف الأنا صورة أخرى من صور تعذيب وقتل أحد رفقائه في الزنزانة ، فقد اضطهد لا لذنب سوى ذنب " بيع الكلمات ...كلمات البشرى " .(٥٤) فقد كان أمين بائع الجرائد ذا وجه فرح وصوت قوي كما وصفه .

وهناك– أيضاً – رفيق جديد تذكّره الأنا فقال: " **وأتذكر الحاج رسمي أبو جعفر ..ربطوا يديه وراء ظهره ، أوقفوه في ساحة السجن ، أمام عشرات السجناء وبدأوا يسخرون منه ...ويضربونه على وجهه، على رأسه ، على صدره ، كانوا يسخرون منه و يضربونه ،وفي لحظة تنبهوا للحيته ، كأنهم يرونها لأول مرة كما لو أنها ذنب كلب ، ويحني رأسه ، لكي يتجنب ألم الشد . لما تعبوا ، أشعل واحد منهم عود ثقاب وقرّبه من اللحية الشائبة ، اشتعلت، أصبحت كأنّها كرة من اللهب، تناول الثاني سطلاً فيه رمل وقذف وجه الحاج . بعد أيام والحاج رسمي يجلس في الشمس ، كان وجهه مثيراً للاشمئزاز والأسى: بقع حمراء تنزف ماءً لزجا ، وعينان بلا أهداب ، والشفة السفلى مدماة** " . (٥٥)

بقيت صورة تعذيب الحاج رسمي ماثلة أمام عيني الأنا ، وراسخة في ذاكرته ، كانت صورة بشعة كما وصفها، فلم يترك الجلادون صنفاً أو لونا من ألوان التعذيب إلا واستعملوه مع هذا الحاج ، فقد تفننوا بتعذيبه .

وقد تكررت تلك الصور المأساوية مع كل أصدقائه في سراديب السجون ، ولم ينسها حتى بعد خروجه من السجن، وسفره إلى أوربا، وعندما أراد أن يكتب رواية أثناء رحلته العلاجية ، بدأ يسترجع كل تلك الذكريات المؤلمة في زنزانة شرق المتوسط ، يستذكر أيام وسني التعذيب ، فلم تفارق مخيلته أبداً ، ومن بين تلك الذكريات المؤلمة ،استذكر **(أمجد ورضون وسعيد)** " ليس هادي الوحيد الذي أعجز عن

الكتابة عنه، هل أستطيع أنْ أكتب عن... أمجد **ورضوان وسعيد ؟ أين عشرات الوجوه الملوثة بالدم ، والتي كنت أجبرُ نفسي على أنْ أنظر إليها بشراهة ، لكي أتألم أكثر ، وأكتب عنها ؟** " (٥٦)

إذن هناك عشرات الوجوه الملطخة بالدماء التي رآها الأنا، وقضى مع أصحابها أيام حياته أثناء تواجده في السجن، وله مع كل منهم ذكريات مؤلمة ، فكل واحد منهم ، كان الآخر المقرب له في زنزانة سجنه.

٢- الآخر الداخلي : يكون قريباً من الأنا ، بحكم طبيعة العلاقات الاجتماعية والعاطفية فيما بينهما ، أي أنّه يقع داخل سياقات انتماءات الأنا . ويتمثل هذا الآخر بوجود:

- **الأم .**
- **الأخت وزوجها .**
- **الحبيبة .**

• **الأم** : تُعدّ الآخر المقرب جداً من الأنا ، فقد شاركت في المظاهرات – مع النساء الأخريات – احتجاجاً على اعتقال الأنا / رجب ، وتعرضت للضرب والإهانة والشتم ، وكانت نهايتها الموت ، بسبب حبها لابنها ، ولهفتها عليه " **قبل موتها بعشرة أيام ، كان يوم خميس ، ذهبت مع أمهات ونساء المعتقلين لمقابلة وزير الداخلية . لاأعرف من الذي أقنعها بالفكرة ، لكن خلال أيام لم تهدأ ولم تتعب وهي تنتقل من بيت لبيت ، حتى تجمع عدداً من النساء ، ويوم الخميس ذهبن لمقابلة الوزير . لم يُسمح لهن بالدخول ، أو بمقابلته . ولاأعرف من اقترحت أنْ لايتركن المكان حتى يصلن إلى نتيجة . كشفن عن رؤوسهن ، ونفشن شعورهن ، وبدأن بالصراخ والعويل ، وقد صممت كل واحدة منهن أنْ تموت ! أنت تعرف موقف الشرطة ، بدأوا بالضرب ، بالصراخ ، لكن لافائدة . ولما حاول الوزير الخروج هجمن عليه. ويبدو أنّ الضربة التي تلقتها على أضلاعها عجّلت في نهايتها .**

قبضوا عليها وقبضوا على عشرات أخريات ،وفي النظارة كانوا وحوشاً ، ضربوها ، أهانوها ، شتموها ، وأبقوها حتى اليوم التالي ، بعد أن عرفوا اسمها وجاءت تراجع من أجل مَن . عادت إلى البيت عصر يوم الجمعة وبدا لي كلّ شيء منتهياً . "(٥٧)

أفصح هذا النص عن وجود العلاقة الوطيدة بين الآخر / الأم ، والأنا / الابن المعتقل ، وبحكم هذه العلاقة لم تكن الأم مكتوفة الأيدي عندما أُعتقل ابنها الوحيد ، بل حاولت جاهدة أنْ تستنكر وتتظاهر لعل السلطات تسمع صوتها وتستجيب لها ، فتفرج عن ابنها المعتقل ، لكن كلّ ذلك لم يجد نفعاً ، فقدت حياتها

من أجل استرجاع حرية ابنها " **أصابتها الحمى منذ تلك الليلة ، وكانت صحتها تزداد سوءاً ، وتنهار كلّ يوم ، ولم تتكلم إلا قليلاً ، كانت تشتم وتدخن ، وبعض الأحيان تبكي .**" (٥٨)

ثم ازدادت حالتها سوءا ، وعرضت على ثلاثة أطباء " **أعطاها الأول إبراً والثاني طلب إجراء تحاليل لها ثم اقترح أنْ تنقل إلى المستشفى ، أمّا الثالث ، فقد وصل بعد أنْ ماتت بخمس دقائق .**" (٥٩)

ويبدو أنّ لهفة هذه الأم وشوقها إلى رؤية ابنها المعتقل ، جعلتها تذكره كثيراً قبل موتها " **كانت لاتذكر في الأيام الأخيرة إلا رجب ، قالوا لها في النظّارة أنّ رجب سيموت قبلها ، وأنّهم سيضاعفون مدة محكوميته، وأنّ رجب سيأكل ضرباً لايحتمله حمار .**

وفي اليومين الأخيرين ، عندما كانت تصحو من الغيبوبة ، كانت ترفع يديها على السماء وتقول (اللهم قو رجب ، وأعم عنه عيون الظّلام) وتشتم " .(٦٠)

إذن ماتت الأم – قُتلت – قبل أنْ يخرج الأنا / رجب من سجنه ، وعندما خرج وسمع من أخته بخبر موتها ، بكى كثيراً ، وقال لأخته " **بصوتٍ حاد يشبه سقوط الحجارة :**

– أنت مجرمة ياأنيسة ، لماذا لم تقولي لي هذا وأنا في السجن ؟

...

– لماذا لم تقولي ؟ لماذا ؟

...

لكن لماذا لم تقولي لي ؟

...

وضرب وجهه ، وضرب جبهته . كانت صرخاته حادة مزقت صمت الليل ، وكانت ضرباته مثل سكاكين تنغرز في القلب ... ضرب رأسه في الجدار "(٦١)

• **الأخت أنيسة :** هي الآخر الداخلي / الثاني الذي ارتبط بالأنا ارتباطا وثيقا بحكم رابطة الأخوة فيما بين الأثنين. ويبدو من أحداث الرواية أنّ أنيسة كانت الآخر المقرب من الأنا / رجب ، وعلى معرفة كبيرة بكل الأحداث التي أحاطت به ابتداء من اعتقاله ، ثم خروجه من السجن بعد خمس سنوات ، ثم سفره للغرب لغرض العلاج ، ثم عودته بعد ذلك إلى الشرق مرة أخرى ، ثم لحظة وفاته بعد العودة .

وتتضح العلاقة الوطيدة بين الاثنين في قول الآخر/ أنيسة " **لم أكن أتصور أنّ الأيام تنقضي خفيفة راكضة هكذا، انقضت تماما، لم أره خلالهما كما تمنيت. غدا يسافر، لا .. اليوم ،، لم تبقَ سوى ساعات قليلة وأبدأ الانتظار من جديد ... هل أطلب منه أن يبقى ... انتظرته خمس سنين حتى عاد** " . (٦٢).

ويشتد خوف أنيسة وقلقها على الأنا/ رجب عندما تراه يتعذب أمام عينيها " **جلستُ بخوف على حافة السرير ، كنت مستعدة لأنْ أحتمل كل شيء حتى أنتزع العذاب الذي يموج داخله ... ألقيتُ رأسي على ركبتيه ، وقلت له بتوسل :**

– ارحمني يارجب ، لقد اسودت الدنيا في عيني ، وإذا لم تقل لي ، إذا لم تتكلم ، فسوف أقتلُ نفسي ...

– تكلم ، أنا اختك وأريد أنْ أساعدك ، قل لي مافي قلبك ، أنت تعرف أنّ الإنسان إذا تكلم يرتاح . مالذي يعذبك ؟

– قل لي أي شيء ، المهم أن لاتترك شيئاً في قلبك " .(٦٣)

لو تمعنا جيدا بلغة الخطاب بين الآخر / أنيسة ، والأنا رجب لوجدنا أنها تدل دلالة واضحة على عمق الارتباط بين الاثنين ، فخوف الآخر على الأنا كان واضحا في كل المفردات المستخدمة في النص ، وهذا الخوف يعكس المشاعر الداخلية له اتجاه الأنا ، فلهفة الانتظار ، والخوف من البعد مرة أخرى ، وعدم تحمل رؤية الأنا وهو يتعذب ... كل ذلك يؤكد طبيعة هذه المشاعر . وكذلك يتضح ارتباط الأنا / رجب بالآخر/ أنيسة عندما يخاطبها قائلاً : " **كل ماأريده منكِ أنْ تصبحي لي أكثر من أخت ، أنْ تصبحي أماً ، تماماً مثل أمي** " (٦٤).

•**حامد / زوج الأخت أنيسة:** هو – أيضاً – الآخر الداخلي الذي ارتبط بالأنا / رجب ارتباطاً وثيقاً ، فقد كان متعاطفاً معه ، وتحمل من السلطات الأذى ؛ لكي يبعدهم عنه ، وقد شعر رجب بذلك عندما وصلته رسالة **خطية منه** " **رسالة حامد واثقة، لها رنين متألق ، يقول لي: اعتنِ بصحتك ، أمّا موضوع العودة، فقرره بالشكل الذي يروق لك. لماذا يكتب حامد بهذه الثقة ؟ لهجته تحمل معنى التحدي ، ولأول مرة تكون عبارته قصيرة حاسمة، في المرات السابقة كان يكتب بطريقة أخرى . والنقود الذي حوّله بهذه الطريقة ؟ هل منعوه من تحويلها فاضطر أنْ يرسلها بهذا الشكل ؟ ...إنّهم يتعرضون لمصاعب ، لو أنّ الحياة هناك تسير بشكل طبيعي، لما لجأ حامد لأسلوب جديد، سواء بالرسالة أو بإرسال النقود** " (٦٥).

شعر الأنا/ رجب بأنّ لهجة حامد في هذه الرسالة تحمل معنى التحدي ، والبحث يرى أيضاً بأن رسالة حامد تحمل دلالات عدّة منها: خوف الآخر/ حامد وقلقه على رجب ، ورغبته بعدم عودته مرة أخرى إلى الشرق، ومنها أيضاً تتضح طبيعة العلاقة بين الآخر الداخلي والأنا، فلو لم تكن العلاقة وثيقة بين الاثنين لما شعر الآخر بهذا الخوف والقلق على الأنا .

واتضح أيضاً هذا الخوف في الرسالة التي أرسلها الصديق المجهول إلى الأنا / رجب عندما أخبره بضرورة عودته لينقذ حامد الذي اتخذته السلطات – آنذاك – رهينة عندها لحين عودة رجب ، ولم يشأ الآخر/ حامد إخبار الأنا / رجب ؛ خوفاً عليه من الاعتقال مرة أخرى " **إنّ حامد رهينة الآن ، أوقف خلال الفترة الأخيرة ... لقد حددوا له شهراً ، وطلبوا منه خلاله حضورك ، قال إنّه لن يكتب إليك مهما حصل ، ويبدو أنّه حذّر أختك** " . (٦٦) *

ولحامد أيضاً قول آخر يؤكد فيه على بقاء الأنا/ رجب بعيداً عن أعين السلطات التي تنوي اعتقاله مرة أخرى في شرق المتوسط " **ليبق حتى يشفى، ليبقى أطول فترة ، ماذا يريد أن يفعل هنا في بلاد السراديب**".(٦٧)

كل هذه النصوص السردية تؤكد قوة العلاقة بين الآخر الداخلي والأنا ، فلولا خوف الآخر وقلقه على الأنا لما ضحى بنفسه ، ورضي ببقائه في السراديب ؛ حفاظا على حياة الأنا .

• **الحبيبة هدى** : ارتبط الأنا / رجب بعلاقة عاطفية مع فتاة أحبها منذ الطفولة تدعى (هدى) ، فهي الآخر المقرب إلى نفسه وقلبه، وبقيت تسكن في قلبه حتى بعد دخوله إلى السجن ، يسأل عنها بعد الحين والآخر، وعندما خرج من السجن، وقبل توجهه إلى العلاج سأل عنها . هذا مانقلته أنيسة قائلة : " **سألني دون تمهيد عن هدى . مازال الجرح ينزّ في قلبه ، لم ينسها ، ولم تغب عن فكره . كان سؤاله متلهفاً ومباشراً ، قال لي ، وعيناه إلى الأرض :**

– ماأخبار هدى ، ياأنيسة ؟ هل ترينها ، ألم تسأل عني ؟

– ألم تسأل عني أبداً ياأنيسة ؟"(٦٨)

وتستمر أنيسة بسردها مسلطة الضوء على المشاعر المتبادلة بين الأنا والآخر ، فبعد أن بيّنت مشاعر الأنا /رجب ، انتقلت لبيان مشاعر الآخر/ هدى ، فقد كانت " **تزورنا كثيراً خلال الفترة الأولى بعد السجن، كنا نتحدث عن رجب كما لو أنّه سيأتي بعد ساعة ، سيطرق الباب فجأة ويدخل ، كانت في البداية تتحدث عنه دون ذكر اسمه وقد احمرّ وجهها مرات عديدة وأنا أنظر في عينيها وأسألها إنْ**

كانت تحبه لهذه الدرجة، لكن في وقت لاحق، بعد أنْ أصبح رجب ملحنا اليومي ،بدأت تتحدث عنه مباشرة ، ولاتتردد في أن تذكر أن عينيه جميلتان رغم الحزن . هكذا كانت الأمور في البداية : الرسائل، العناية بالملابس، والتذكر المبهج " . (٦٩)

هكذا كانت العلاقة العاطفية بين الأنا / رجب والآخر الداخلي /هدى ، قبل انْ يُسجن ، ولكن هذا القرب وتلك المودّة لم تدم طويلاً ،بعد دخول رجب إلى السجن، فقد حُكِمَ على هذا الحب بالموت ؛ بسبب ملاحقة الأهل ومحاصرتهم لهدى" **كانت تبكي ، كانت تقضي عندنا ساعات طويلة ، ولاتفعل شيئاً إلا البكاء . سألتني مثل طفلة صغيرة(هل أهرب ياأنيسة ؟ لاأطيق أن أتزوج غير رجب) لكن رجب كان بعيداً ومستحيلاً ، وأهلها كانوا يلاحقونها ويحاصرونها ، ولم تكن تستطيع أن تتخلص** " . (٧٠)

ويتتابع سرد هذا الحدث بلسان هدى " **سأقتل نفسي ياأنيسة، لاأطيق أنْ يلمسني أحد ، وإذا أرغموني على أن أتزوج غير رجب فلن يفرح بي رجل ، سأقتلُ نفسي** " .(٧١)

إذن حتى الفراق بين الاثنين – بين الأنا والآخر – لم يكن بإرادتهما ولاباختيارهما ، بل فُرِضَ عليهما بسبب الظروف المحيطة بهما التي أجبرتهما على ذلك ، ومع حصول هذا البعد إلا أنّ الآخر / هدى ، كانت تحمل في قلبها المودة والحب للأنا / رجب قبل أنْ تُرغم على الزواج بغيره بعد دخوله إلى السجن .

المكان بوصفه (آخر)

شكل المكان محوراً رئيساً ومكوناً مهماً من مكونات العمل الروائي ، وقد تجلّى بوضوح في شرق المتوسط ، ابتداء من عتبة العنوان ، وانتهاء بخاتمة الأحداث . وجسّد مع الأنا – بوصفه (آخر) – ثنائية ضديّة ، اتّسمت مرة بنفورالأنا منه ،، وأخرى بالالتحام والارتباط الوثيق به ، وسيتجلى ذلك بوضوح في الأمكنة الآتية التي أصبحت الآخر المعادي للأنا الذي نفر منه ، أو المقرب إليه الذي التحم معه :

- **السجن .**
- **السفينة .**
- **الغرب.**
- **السجن بوصفه المكان / الآخر المعادي للأنا**

السجن في شرق المتوسط ، هو السجن السياسي الذي " ضم المجموعات التي رفضت الرضوخ والتسلط والاستسلام "(٧٢) . للسلطة الحاكمة . ولهذا المكان عالمه الخاص وقوانينه ، وأعرافه ، وتقاليده ،

وعاداته ، ولغته الخاصة .[٧٣]. و لم يُعد محدداً بحدود ضيّقة، بل مارس دورين: " الأول دوره المكاني الذي تفترشه الحوادث، والآخر خصم مضاد يوقع بالسجين ماأمكنه ذلك " [٧٤] .

والسجن هنا هو المكان السياسي ، فالسجين (رجب) في هذه الرواية ، مرّت به أحداث مؤلمة ، في هذا المكان ، لذلك عُدَّ السجن (الآخر) المرعب الذي اقترن شرطياً بحالته النفسية ، حتى بعد خروجه منه ، وتواجده في بيت أخته (أنيسة) ، ورؤيته للساعة الجدارية ، التي ذكرته بساعة السجن التي لم تفارق مخيلتهُ أبداً .

أُدخِلَ الأنا / رجب لهذا السجن بعد ممارسته للعمل السياسي ، مما أدى إلى اعتقاله ، وتعرضه لصنوف من التعذيب الجسدي والنفسي ، منذ اللحظات الأولى لدخوله فيه ." **فَتَحَ باب القبو ودفعني بقوة، أتذكر أنّي كنت أنظرُ إليه بحقد ، لكن بعد ثانية كنتُ أنظرُ إلى أرض القبو وقد انتشرت فوقها قطرات الدم الذي سال من الجرح الذي أصابني في شفتي** " [٧٥] .

من هذا النص ابتدأت رحلة الأنا / رجب مع الآخر/ السجن الذي أُدخِلَ اليه عنوةً ، ومورِسَ ضده أول ألوان التعذيب الجسدي ، عندما أصيبت شفته ، وسالت قطرات الدم على أرض القبو .

ثم بدأت ألوان التعذيب النفسي ، عندماُ رصتْ أجساد أربعة عشر سجيناً في مكان محدد صغير " **كنا أربعة عشر رجلاً. أربعة عشر. نعم أربعة عشر. الغرفة لايمكن أنْ تستقبلنا إلا وقوفاً ، وقوفاً تماماً، كانت الأجساد متراصة ، رائحة العرق ، رائحة الأفواه، الشعور الطويلة، الأظافر السوداء من بقع الدم المتخثرة تحتها، على هذه المسافات المتناهية الدقة لايمكن للإنسان أن يرى شيئاً .**
طرف الوجه قطعة لحم صمّاء لاتعني وجهاً أو جزءاً من وجه، الأنف كتلة كبيرة تنتفخ تتقلص في محاولة لأنْ تسحب الهواء، والشفاه رغم كل شيء تنفرج عن أسنان يخيم على أقسامها السفلى سواد الدخان، ويخيم على أقسامها العليا السواد المصفر " [٧٦].

ارتسمت هنا صورة سلبية للمكان الآخر/ السجن ، فالغرفة فيه محدودة جداً ، لايمكن أن تستوعب أربعة عشر رجلاً إلاّ وقوفاً ، بحيث تراصت الأجساد ، وفاحت رائحة العرق والأفواه ، وتلونت الأظافر ببقع الدم ، وانعدمت الرؤيا بين السجناء ، وتلاشت صورة الأعضاء البشرية ، وتغيرت ألوانها ...الخ .

كل هذا الوصف وظِفَ ليدلَّ على سوداوية صورة هذا المكان الذي لايكاد أن يستوعب هذا العدد من السجناء . وقد اتضحت تلك الدلالة عندما تكرر لفظ عدد هؤلاء السجناء (**كنا أربعة عشر ، أربعة عشر، نعم أربعة عشر**) فالتكرار هنا ورد للتأكيد على ضيق المكان ومحدوديته ، وكذلك أظهر الموقف النفسي

والانفعالي لشخصية السجين رجب ورؤيته للآخر / المكان السوداوي الذي زُجَّ فيه مكرهاً ، فترك في داخله انفعالات نفسية عكستها تكرار تلك المفردات التي رددها أكثر من مرة ، فلم يكن باستطاعته إدراك حجم هذا المكان ، وتواجد تلك الأعداد الكثيرة فيه من السجناء ، فتكرار تلك الأعداد في هذا النص ، لم يرد حشواً فيه ، بل ورد ليثري النص بدلالات عدّة تظهر للمتلقي أهمية رسم صورة واضحة لهذا المكان .

ويبدو أنّ للسجن السياسي " طبيعة خاصة تختلف عن طبيعة السجن العادي في المراحل التي يمر بها السجين ، وفي الآثار السلبية : الجسدية والنفسية ، التي تصيبه فيه ، والتعذيب الجسدي والمعنوي ، محاولة لإخضاعه ، وإذلاله ، والنيل من مبادئه ".(٧٧) وهذه الطبيعة الخاصة لم تجعل هذا المكان/ الآخر مرعبا لشخصية رجب (الشخصية الرئيسة) فحسب، بل أصبح العدو المتربص بكل النزلاء، فأمجد لم ينس لحظات تواجده في زنزانة السجن " **كان يتذكرها بعد ثلاث سنين .لم ينسها أبداً ،انحفرت في رأسه مثل تاريخ على شجرة قديمة ، على جدار دير . لما سألناه مرة عن تاريخ ميلاده ، حاول أن يتذكر . قال ١٢ آيار ، ثم استدرك وقال ٢٧ نيسان ، لما سألناه أي التاريخين هو الحقيقي ؟ قال : التاريخ الحقيقي الوحيد : ٢١ تشرين الثاني ، هذا هو التاريخ .**

الكهرباء ، الموت الحقيقي ، ينخض القلب ثم يموت ، كانوا يضعون التيار على الأكتاف ، قريبا من القلب ، فوق الأنف ... وينتفض القلب ، يترنح ، يتوقف ، ويتوقفون .. مئات المرات فعلوا ذلك . لو أنهم شرفاء لدرجة كافية لوضعوه ثانية أخرى وانتهى الأمر ، لكنهم لايفعلون "(٧٨).

هذا الوصف الدقيق لتعذيب جسد النزلاء، وظف دلالياً ليعكس صورة دقيقة ومدانة لهذا المكان / السجن الذي مورست فيه ألوان التعذيب. وتلك الصورة رسخت في ذاكرة الشخصية سنوات عدّة ، وانطبعت في ذهنها حتى بعد الابتعاد عن هذا الآخر المعادي. فالتعذيب بالكهرباء كان مستمراً مئات المرات في كل أنحاء الجسم حتى وصل الأمر إلى تمني الموت للخلاص من ألوان العداء التي مورست في هذا المكان .

ونلاحظ ايضاً أنّ هذا المكان / الآخر اقترن شرطياً مع حالة أمجد النفسية ، حتى بعد خروجه من السجن ، فلم تزل الذكريات المؤلمة تلاحقه ، ولم تفارق مخيلته أبداً .

وإبراهيم وعزيز تعرضوا – أيضاً – للضرب والشتم والتعذيب في هذا المكان " لم **يترك الآغا شتيمة .قال كل الشتائم التي يعرفها ... لما تعب من الشتائم أجلسنا على الأرض، وبدأ يخاطبنا بحذائه ، وضع قدمه على رقبة إبراهيم من الخلف وداسه بكل ثقله حتى وقف فوقه ، وترك قدمه الأخرى تهتز في الهواء. أما عزيز الذي كان في بداية الصف، فقد دفعه بقوة ، فاصطدم بنا ثم انقلب على وجهه** " .(٧٩)

وهكذا أصبح هذا المكان / السجن هو الآخر المعادي الذي لم تستطع الشخصيات الالتحام به ، والشعور فيه بالراحة والأمان ، بل مارس دورا عدائياً عليها ، وأثر تأثيراً سلبياً فيها .

• **السفينة بوصفها المكان / الآخر المقرب للأنا**

أشيلوس هي باخرة الركاب اليونانية التي أبحرت عبر المتوسط ، كان الأنا / رجب على ظهرها متوجها إلى الغرب ، لكي يتعالج من المرض الذي أصابه عندما كان في زنزانة سجون شرق المتوسط .

وهي المكان / الآخر الذي التحمت به شخصية رجب ووجدته ملاذاً آمناً ينقلها من قيد السجون إلى الحرية " " **الباخرة ، منذ ثلاثة أيام ، توفر لي جواً من الحرية** ".(٨٠) " **أشيلوس ... أنت سفينة الحرية ، سفينة لها مائة باب**" (٨١) هذا الشعور النفسي الذي تولد عند رجب جعله مؤتلفاً مع هذا الآخر ، فهو يخاطبه بين الحين والآخر، ويفصح عن مشاعره، ويروي له معاناته السابقة في السجن " **أشيلوس ياصديقتي ... ياصديقتي ، أنتِ لم تري السجن ، لو رأيته يوماً لتغير صوتك ، كانوا يريدون صوتاً ، مجرد صوت ... لوعرفت السجن يا أشيلوس لتعلمت كيف تصمتين ، لو توقف صوتك دفعة واحدة ، فانّ الرعب سيشلهم ، سيموتون** ."(٨٢)

نجد في هذا النص أنسنة واضحة لهذا المكان، فالسفينة أشيلوس امتلكت الحواس الإنسانية التي جعلتها تسمع حديث الأنا/ رجب، وتعي مايقول ، وترى أيضاً(**لو رأيته يوماً ، لتغير صوتك ، لو عرفت**). وربما لجأ المؤلف إلى أنسنتها، لتكون الآخر المقرب للشخصية ، فبعد أن كان السجن هو الآخر المعادي لها ، انتقلت منه إلى مكان آخر تكون فيه أكثر أمناً واطمئناناً، وتلك الطمأنينة جعلت العلاقة وثيقة بين المكان وساكنيه – بين رجب والسفينة –" سأنظم لك أشعاراً ياأشيلوس، **وأريد أن أغني** ".(٨٣) ويتابع مخاطبته لها " **اهتزي أشيلوس . اهتزي أكثر، تحولي إلى حوت ، إذا أصبحت حوتاً .. انتفضي ، إقلبي البشر، وعندما يطوفون حواليك موتى ،ممسوخي الوجوه، التقطيهم واحداً بعد الآخر: ازدردي المخلوقات التائهة ،والذكريات، ولحظات السقوط ، أتسمعين ياأشيلوس ماأقول لك ؟ يجب أن تسمعي كل الكلمات ، إذا سمعتيها جيداً سيزول الندم ، ستنقضي لحظة التردد ، وتفعلين .**

أشيلوس كُفّي عن الدعابة السمجة ،اهتزي كما أقول لك ، اهتزي مثل راقصة شرقية عذبتها ذكرى أيام الجوع، وتريد بأردافها أن تضرب العالم، أن تنتقم. هل تريدين أن أقول لك كل شيء ياأشيلوس ؟ لاتلعبي هذه اللعبة ، لاتفكري أن نخون بعضنا. بقيت لي خمسة أيام ياأشيلوس ، ساشدّ على الدابزون كآخر تحية ، يمكن أنْ يوجهها إليك إنسان راحل . لن يراك مرةً أخرى " . (٨٤)

لو تأملنا هذا النص لوجدنا الارتباط الحميمي بين الشخصية والمكان/ الآخر، ولغة التخاطب بينهما دلت على ذلك دلالة واضحة . فالعلاقة بينهما لم تكن علاقة سلبية ، بل هي علاقة إيجابية جسدتها لغة النص " قلت لأشيلوس ... **لاأظنّك تفعلين مايفعله البشر، أنت تمنحين الدفء والفراش، تمنحين الغذاء، ولاتريدين مقابلاً** "(٨٥)

ثالثا : الغرب بوصفه المكان / الآخر المقرب للأنا :

هو المكان الآخر الذي تعرف البحث على وجوده من خلال النص المدروس، ابتداء من لحظة صعود رجب على ظهر الباخرة أشيلوس التي نقلته إلى الغرب، وقد شكّلَ هذا الغرب ثنائية ضدية مع الشرق / شرق المتوسط الذي مثّل عالم القمع والترهيب، في حين مثّل الغرب عالم الحرية .

وهو المكان الآخر الذي أبهر رجب بكل مافيه " **تصورتُ أنّ مرسيليا وحدها لها هذا الطابع ، لكنْ في باريس رأيتُ أموراً أعجب. الأحزاب لها مراكز مكتوبة عليها الأسماء بوضوح ، يدخلها الناس دون خوف، يدخلون دون أن ينظروا وراءهم، ويتكلمون في الشارع، وبصوت عال . أمّا الجرائد فانّها تنشر كل شيء، الأفكار وحوادث القتل والطرق الحديثة في العلاقات الجنسية ، والناس يقرأون ، أمّا الكتب فلابد أنّ الإنسان يعجز عن معرفة مايصدر فيها لكثرتها** " . (٨٦) .

لوتأملنا الصورة الوصفية للغرب– في هذا النص– لوجدناها صورة مخالفة تماماً للشرق/ شرق المتوسط، صورة بإمكاننا رسمها في مخيلتنا ، فبقية الأحزاب ليس لها مراكز مكتوبة بأسمائها ، ولايمكن الدخول إليها، والذي يدخلها سيكون خائفاً ومتردداً، ومضطرباً ينظر خلفه على من يراقبه . وكذلك لاترتفع الأصوات خوفاً وذعراً من الجهات الأخرى التي تسمعها ، والجرائد لايمكنها نشر كلّ شيء ، فكتمان أغلب الأخبار هو سمة أساسية فيها .

الشرق هو" **شاطيء المتوسط الشرقي لايلدُ إلاّ المسوخ والجراء،سيظلُّ ذاك الشاطيء يقذف كل يوم عشرات الجراء،مئات الجراء،وحتى لووصلت أعدادهم إلى الآلاف،فستظل جراء تعوي في السراديب ، أو تموت في المزابل لأنها لاتريد ذلك** "(٨٧)

إذن وصف رجب لتلك الصورتين يؤكد الفرق بين المكانين: الشرق الذي عُذب فيه وأُضطهد، وبين الغرب / الآخر الذي جسّد الحرية بكل صورها " **قالوا إنّ الحرية في أرض أخرى ... يمكن أنْ يعيش فيها الإنسان أيامه دون أن يوقظه عند الفجر صوت المخبرين ، وضربات أحذيتهم ، سأرحل إلى تلك البلاد** ".(٨٨)

وعلى الرغم من مغادرة رجب للشرق المعادي له ، وتوجهه إلى المكان الآخر/ الغرب لم ينسَ أبداً الصورة السوداوية لذلك الشرق " **وأنتِ يابلاد الشاطيء الشرقي بدءاً من ضفاف البحر ، وحتى أعماق الصحراء ، لماذا لاتتركين بشرك يصلون إلى سن الشيخوخة ؟ كانت أعناق الرجال والنساء تلتوي على مهل ثم تسقط ، كانت الحفر الصدئة تستقبل كلّ يوم عشرات الجثث التي لم تتح لها حتى فرصة الحلم ، حملت معها أحزانها ورحلت** " .(٨٩)

ويستمر رجب باسترجاع تلك الصور القاتمة فيقول: "**هل يتصور أنّ على الشاطيء الشرقي للمتوسط إنساناً واحداً يمكن أن يموت من الفرح؟ الفرح بالنسبة للشعب السجين طائر مهاجر ، حتى الجلادون لاأظنّ أنّهم قادرون على الفرح، إنّهم ينامون تحت أقواس من السياط ، تحت أشباح الصرخات ، يأكلهم الخوف أنْ تدّق أبواب بيوتهم في أواخر الليل ،وينتزع من فراشهم ، لكي يدفعوا الدين الذي في رقابهم**".(٩٠)

من خلال ملاحظتنا للصور الوصفية بين المكانين المتناقضين نجد أنّ الغرب مثّل لرجب صورة مشرقة، جسدت الحرية بكل أشكالها، بينما كانت صورة الشرق، هي صورة قاتمة سوداوية. إذن الغرب هو الآخر الذي فتح له باباً من أبواب الحرية المطلقة ، وقرر أنْ يرحل إلى تلك البلاد ... وسيواصل الرحيل إليها .

نتائج البحث :

• يُعدّ النظام السياسي التعسفي في شرق المتوسط السبب الرئيس لتنوع صورة الأنا بين مضطهد معذب ، ومهزوم منكسر ، عاش صراعاً داخلياً بسبب ضغط السلطة السياسية .

• تباينت صورة الآخر حسب علاقته بالأنا ، فتمثلت بالآخر الخارجي (المعادي والصديق) والآخر الداخلي المقرب للأنا عاطفيا واجتماعيا .

• يُعدّ المكان عنصراً أساسياً من عناصر تكوين الرواية المدروسة ، وقد تشكّلت صورته على وفق ثنائية اتسمت مرة بنفور الأنا منه ، وأخرى بالالتحام به . وكذلك لم يكن بمنأى عن الأحداث المهمة التي تجلّت فيه ، فأثّرت بالأنا تأثيرا مباشرا جعلته إمّا كارها لهذا المكان / الآخر ، أو محباً له .

الهوامش :

(١) ينظر: لسان العرب /٨ باب الميم ، مادة (مثل) .

(٢) المعجم الوسيط ، ج ١ /٢ : باب الميم ، ٨٥٣ .

(٣) المعجم الأدبي : ٧٨ .

(٤) تمثلات العجيب في السيرة الشعبية العربية : ٢١.

(٥) تمثلات الآخر (صورة السود في المتخيل العربي): ٣٩-٤٠

(٦) تمثلات العجيب في السيرة الشعبية العربية : ٢١ .

(٧) ينظر : تمثيلات الهوية في تراث الجاحظ : ١٣

(٨) لسان العرب،مج١ : باب الهمزة ، مادة (أنن)، وينظر المعجم الوسيط ،ج ٢/١ : باب الهمزة .

(٩) المعجم الوسيط ، ج٢/١ ، باب الهمزة : ٨ .

(١٠) لسان العرب ، مج١ : باب الهمزة ، مادة (أخر)

(١١) معجم المصطلحات الأدبية : ٤٧ .

(١٢) الشعر العربي في العراق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر دراسة في ضوء النقد الثقافي

(١٣) دليل الناقد الأدبي : ٢١ .

(١٤) تمثيلات الآخر صورة السود في المتخيل العربي الوسيط : ٢٠

(١٥) صورة الآخر في شعر المتنبي : ٢١ .

(١٦) الآخر في القرآن: ٣٦ .

(١٧) صورة الآخر في قصص سناء الشعلان دراسة تحليلية : ٣٣

(١٨) دليل الناقد الأدبي : ٢١ .

(١٩) ينظر المكان نفسه .

(٢٠) جماليات التشكيل الروائي : ٦٣ .

(٢١) الأنا والآخر بين الفلسفة والسيكولوجيا drabbass.wordprss.com

(٢٢) جماليات التشكيل الروائي : ٦٤.

(٢٣) شرق المتوسط : ١٢٢ .

(٢٤) نفسه : ١٢٤ .

(٢٥) نفسه: ١٢٢ .

(٢٦) نفسه : ١٣٠ .

(٢٧) نفسه : ١٣١ .

(٢٨) نفسه : ١٣٥ .

(٢٩) نفسه : ٢٣٨ .

(٣٠) نفسه : ٢١٢ .

(٣١) نفسه : ٢٠٨ .

(٣٢) نفسه : ٢١٦ .

(٣٣) نفسه : ٢٣٥ .

(٣٤) نفسه: ١٩٧-١٩٨ .

(٣٥) نفسه : ١٩٧ .

(٣٦) المكان نفسه .

(٣٧) نفسه : ١٢٤ .

(٣٨) نفسه :٢١١-٢١٢ .

(٣٩) نفسه: ٢٢٢-٢٢٣ .

* ارتأى البحث اقتباس هذا النص الطويل ليتضح للمتلقي طبيعة تكوين تلك الصداقة

(٤٠) شرق المتوسط : ٢٢٣ -٢٢٤ .

(٤١) نفسه : ٢٢٥ .

(٤٢) نفسه : ٢٢٧ .

(٤٣) نفسه : ٢٢٦ .

(٤٤) نفسه : ٢١٩

(٤٥) نفسه : ٢١٩ ، ٢٢٠ .

(٤٦) المكان نفسه .

(٤٧) المكان نفسه .

(٤٨) نفسه : ٢٢١ .

(٤٩) المكان نفسه .

(٥٠) نفسه : ٢٢٧-٢٢٨ .

* ينظر ص ٧ (في البحث)

(٥١) شرق المتوسط : ١٩٩-١٢٠

(٥٢) نفسه : ١٩٩ .

(٥٣) نفسه : ١٩٦- ١٩٧ .

(٥٤) نفسه : ١٩٦ .

(٥٥) نفسه : ٢٠٥ .

(٥٦) نفسه : ٢٠٠ .

(٥٧) نفسه : ٦٨-٦٩.

(٥٨) نفسه : ٦٩ .

(٥٩) المكان نفسه .

(٦٠) نفسه : ٦٩

(٦١) نفسه :٧٠-٧١.

(٦٢) نفسه : ٥٧ ، ٥٨ .

(٦٣) نفسه : ٦٠ ، ٦١ .

(٦٤) نفسه : ٢٣٥ .

(٦٥) نفسه : ٢٢٦ .

(٦٦) نفسه : ٢٢٧ -٢٢٨ .

• للاطلاع على النص الكامل لهذه الرسالة ، ينظر ص ١٠ (في البحث)

(٦٧) شرق المتوسط : ٢٣١ .

(٦٨) نفسه : ٨٣-٨٤.

(٦٩) نفسه : ١٥٤ .

(٧٠) نفسه : ٨٤ .

(٧١) نفسه : ١٥٥ .

(٧٢) فلسفة المكان في الشعر العربي : ٩٤ .

(٧٣) المكان نفسه .

(٧٤) رواية السجن في العراق (دراسة نقدية) : ٢٤ .

(٧٥) شرق المتوسط : ٢٨ .

(٧٦) نفسه ، ١٤٢ .

(٧٧) البطل السجين السياسي في الرواية العربية المعاصرة : ١٤٣ .

(٧٨) نفسه : ١٤٣-١٤٤ .

(٧٩) نفسه : ٣٠ .

(٨٠) نفسه : ١١٦ .

(٨١) نفسه : ١٤٨ .
(٨٢) نفسه : ١١٦.
(٨٣) المكان نفسه .
(٨٤) نفسه : ١١٣ .
(٨٥) نفسه : ١١٣-١١٤ .
(٨٦) نفسه : ١٩٦ .
(٨٧) نفسه : ١٤٣.
(٨٨) نفسه : ١١٣.
(٨٩) نفسه : ١٩٥-١٩٦..
(٩٠) نفسه : ٢١٤ – ٢١٥

المصادر والمراجع :

- القرآن الكريم .
- الآخر في القرآن : غالب حسن الشابندر ، مركز دراسات فلسفة الدين – بغداد ، د.ط ، ٢٠٠٠
- الأنا والآخر بين الفلسفة والسيكولوجيا : د. خضر عباس ، drabbass.wordprss.com.
- البطل السجين السياسي في الرواية العربية المعاصرة : علي منصوري ، أطروحة دكتوراه ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة الحاج لخضر – باتنة ،٢٠٠٧ / ٢٠٠٨ .
- تمثلات الآخر (صورة السود في المتخيل العربي): نادر كاظم ، المؤسسة العربية ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٤ .
- تمثلات العجيب في السيرة الشعبية العربية ، سيرة الملك سيف بن ذي يزن أنموذجاً : صفاء ذياب علوان ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة البصرة ، ٢٠١٤ .
- تمثيلات الهوية في تراث الجاحظ ، دراسة في ضوء النقد الثقافي ، مريم عبد النبي عبد المجيد ، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب ، جامعة البصرة ، ٢٠١٨ .
- جماليات التشكيل الروائي ، دراسة في الملحمة الروائية " مدارات الشرق " لنبيل سليمان : محمد صابر عبيد ، د. سوسن البياتي ، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع ، الأردن ، ط١ ، ٢٠١٢ .
- دليل الناقد الأدبي : د. ميجان الرويلي ، د. سعد البازغي ،المركز الثقافي ، العربي ، الدار البيضاء – المغرب، ط٥ ، ٢٠٠٧.
- رواية السجن في العراق (دراسة نقدية): هادي شعلان حمد البطحاوي ، رسالة ماجستير ، كلية التربية ، جامعة بابل ، ٢٠٠٢ .

– شرق المتوسط: عبد الرحمن منيف ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط١٥ ، ٢٠٠٦ .
– الشعر العربي في العراق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، دراسة في ضوء النقد الثقافي ، سجاد شعبان حسن ، أطروحة دكتوراه ، كلية التربية للعلوم الإنسانية / جامعة البصرة ، ٢٠١٧ .
– صورة الآخر في شعر المتنبي: محمد الخباز، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ٢٠٠٩.
– صورة الآخر في قصص سناء الشعلان ، دراسة تحليلية: سناء جبار العبودي ، دار أمل للطباعة والنشر والتوزيع ، سوريا – دمشق ، ط١ ، ٢٠١٨ .
– لسان العرب : للإمام العلامة ابن منظور، مج ١ : ج٣ ، دارالمعارف ، القاهرة .
– فلسفة المكان في الشعر العربي، قراءة موضوعاتية جمالية : د. حبيب مونسي، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق، د.ط ، ٢٠٠١ .
– معجم المصطلحات الأدبية : إبراهيم فتحي، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين ، تونس ، ط١ ، ١٩٨٦.
– المعجم الوسيط :ج ١ و٢ ، قام بإخراجه: إبراهيم مصطفى ،أحمد حسن الزيات ، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، مجمع اللغة العربية ، دار الدعوة للتأليف والطباعة والنشر والتوزيع .